العلم الديني تساؤلات حول المفهوم وحدوده

مهدي كلشني*

تعريب: محمد حسن زراقط

لقد اخترت الحديث حول موضوع العلم الديني إثر احتدام النزاع الفكري حول هذه المسألة وبأشكال مختلفة وعلى صعد شتى كأسلمة العلوم وأسلمة الجامعة، وما شابه ذلك من موضوعات ذات صلة بالموضوع الأم. وإني أرى بعض أهل العلم يقفون من هذه القضية موقف الشاك المتردد، وأكتفي بالإشارة إلى موقفين يكشفان حقيقة الحال وواقعه:

١ـ يقول أحد أساتذة كلية الإلهيات في جامعة طهران في مقالة له نشرتها مجلة «راه نو» (الطريق الجديد):

«إنني أطلب من أهل العلم وأصحاب الرأي في المسائل الدينية أن يبينوا لي بصراحة كاملة ما يرمون إليه عند إلحاقهم لاحقة «إسلامي» لأمور تبدو بوضوح أنها ذات صبغة عقلانية وبرامجية؟ وما لم يتّضح هذا الأمر، فلن يصل الحوار بين أصحاب دعوى القراءة الرسمية للدين والقراءة المتنورة له إلى خواتيم مثمرة».

٢ـ ويقول أحد المحاضرين في كلية العلوم السياسية في جامعة طهران: **«لا أدري ما هو مدى أهمية تديُّن وإيمان الأستاذ الذي يريد تدريس الفيزياء مثلاً؟!».**

وبعد عرضي لهذين النموذجين أرغب بمعالجة هذه الإشكاليات. ولا غرابة في الأمر لو أن هذه الشبهات طُرحت قبل

* دكتوراه في الفيزياء ورئيس معهد العلوم الإنسانية والأبحاث الثقافية ـ طهران.

الثورة الإسلامية في إيران. ولا أنظر في هذا الموضوع إلى الأحداث التي حصلت في إيران وحدها، بل أمدُّ نظري إلى المجال الأرحب وأوجِّه عناية القارئ الكريم إلى أنه لم يكن مسموحاً قبل خمس وعشرين سنة الحديث عن الدين في ميادين العلم وساحاته، بل أذكر أنني كنت مشاركاً، في تلك الفترة، في مؤتمر عقد في إمبريال كولدج Imperial College بلندن، وأذكر يومها أن أحد الفلاسفة المسيحيين أشار، في مناسبة حديث له حول نشأة الكون، إلى الله فما كان من أحد أساتذة جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة الأمريكية إلا أن انتفض غاضباً معترضاً على ذكر الله في مؤتمر للفيزياء.

هذه هي الحال قبل سنوات أما اليوم، فإن درس العلم والدين والبحث عن الصلة بينهما من أكثر الدروس الجامعية رواجاً بحسب مجلة New Scientist (العالِم الجديد). ففي السنتين الأخيرتين تكشف التقارير الواردة عن النظام التعليمي في الولايات المتحدة، أن أكثر من مائتي جامعة أدخلت ضمن برامجها التعليمية مادة «العلم والدين»، وكذلك يشار إلى أن جامعة ليدز في بريطانيا أسست مركزاً للأبحاث حول العلاقة بين العلم والدين، بل أنها فتحت تخصصاً على مستوى الإجازة في هذا المجال. وقد أعلنت جامعة بوسطن عن بدئها بإعطاء درجة الدكتوراه في هذا التخصص، ولا أُغفِل الإشارة إلى أن جائزة نوبل تعطى كذلك للأبحاث في هذا الميدان.

هذه الإشارة العابرة تكشف عن حدوث تغيير كبير على الصعيد العالمي في النظر إلى موضوع العلم والدين، ويبدو وكأنَّ السادة المشار إليهم أعلاه لم يسمعوا بهذا الأمر ولم تصل نسائمه إلى مشامهم.

الجذور التاريخية للمسألة:

ربما يحسب بعضهم أن المراد من العلم الديني هو الدعوة إلى العودة إلى النصوص الدينية كالقرآن الكريم والأحاديث الشريفة بدل الاتكاء على التجربة في الاكتشافات العلمية، أو أن نتعلم من النص الديني طرائق التجربة ومناهجها. ولكن ليس المراد هو هذا أبداً، بل يرجع الأمر إلى جذور أعمق وأكثر أساسية.

ولا يخفى أن أسلمة العلم ليست بالأمر الجديد الذي يطرح في هذه السنوات الأخيرة فحسب؛ حيث إن السيد أحمد خان قبل بداية القرن العشرين أسس معهداً لتعليم المسلمين العلوم الجديدة. وبعد فترة من هذه التجربة، وفي بدايات القرن العشرين أعاد تقييم

تجربته فوجد أن أكثر خريجي هذه الجامعة علمانيون أو ملحدون، ما دعاه إلى التوجه بالسؤال إلى المرحوم **أبو الأعلى المودودي** ليستطلع رأيه ويطلب مساعدته في أسلمة الجامعة. وقد استجاب **المودودي** لطلبه والتفت إلى الثغرة الموجودة في نظام الجامعة، وقال: لا يمكن حل هذه المشكلة بأن تعمدوا إلى تدريس الفلسفة الإلحادية ثم تضيفوا إلى جانبها بعض الدروس الدينية؛ حيث إن الطالب سوف يقضي معظم وقته، وهو مضطر لذلك بحسب النظام التعليمي، في دروس إما أغفلت الله وإما أنكرته.

وهنا تجربة أخرى لا يمكن إغفالها وهي المؤتمر الذي عقد بمكة المكرمة تحت عنوان: «**التربية والتعليم في الإسلام**» وذلك قبل سنة من انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وحضره ٣١٣ عالماً من علماء المسلمين منهم السيد **حسين نصر** من إيران والكيميائي الباكستاني المعروف الدكتور **عطاء الرحمن**. وموضوع البحث في ذلك المؤتمر هو ما أتحدث عنه وهو مفهوم العلم الديني وأسلمة العلوم، الموضوع الذي تجري مناقشته في كثير من المؤتمرات العلمية التي انعقدت في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، ولا تعكس الصحافة أخبارها، مع الأسف، بشكل صحيح. فقد رأيت أن أحد أساتذة جامعة طهران استنتج من هذه المؤتمرات أن المقصود من أسلمة العلوم هو إرجاع المسائل العلمية والاكتشافات إلى القرآن والسنة.

للحق أقول: إنني كنت من المشاركين في مؤتمر ماليزيا لأسلمة العلوم الذي عُقد قبل ١٤ عاماً ولم تكن مسألة الإعجاز العلمي من المسائل المحورية في هذا المؤتمر، بل البحث الأساس كان بحثاً فلسفياً في فلسفة العلم، ومع ذلك يأتينا من يعترض ويقول: وهل توجد فيزياء إسلامية وأخرى غير إسلامية؟ أو كيمياء إسلامية وأخرى ليست كذلك؟! وكذلك في علم الاجتماع هل يوجد منه نوعان؟! فالعلم أمر واقعي لا يختلف من روسيا إلى أمريكا. وعلى أي حال سوف يبقى هذا الكلام يقال وعلينا أن نتابع نحن جهودنا التي ينبغي أن يكون رائدها البرهان والدليل. وليس «**دينئة العلم**» أمراً خاصاً بالمسلمين، ففي الغرب يُبحث هذا الموضوع أيضاً وأشير إلى مؤتمر عُقد في كندا تحت عنوان: «العلم في محيط متدين» Science In religious Context.

مشروع العلم الديني

يطرح تساؤل كبير في المطبوعات وغيرها من وسائل الإعلام الثقافي حول مفهوم

العلم الديني، ويشكك كثير من الكتّاب والباحثين في مبررات تقسيم العلم إلى ديني وغير ديني، إسلامي وغير إسلامي. وأنا أدّعي إمكانية وجود علم ديني من جهتين. وبعبارة أخرى: أدعي أن مفهوم العلم الديني له ما يبرره.

١ـ إن العلم التجريبي وغيره من العلوم الاجتماعية والإنسانية ينطلق من مجموعة من المصادرات الميتافيزيقية، ولا ينبغي الظن بابتناء العلوم الاجتماعية وحدها على هذا النوع من المصادرات الفلسفية. ومما يُؤسف له أننا لا نلتفت إلى هذه المصادرات ولا نهتم بها في بلادنا، بينما نرى أن الفكر الغربي يلاحظها ويلتفت إلى وجودها بشكل قوي وواضح. إذاً، الأمر الأول هو أن العلم حتى التجريبي منه يرتكز على مصادرات فلسفية.

٢ـ العلم الديني علم موجّه يهتم بعملانية العلم ويحول دون التخريب الذي أحدثه ويحدثه «العلم العلماني».

وعندما نلاحظ هاتين المسألتين في سطح أعلى يتّضح أن الأمر أكثر جاذبية مما يقال حتى الآن.

ففي مجال العلوم التجريبية وبخاصة الفيزياء وعلم الأحياء اللذان يعدّان جزءاً من البنية التحتية للعلوم التجريبية الأخرى، توجد فرضيات كثيرة، ومما يؤسى له أن هذه الفرضيات لا يجري فصلها عن الحقائق والوقائع التجريبية. ولتوضيح واقع الحال نذكر المثال الآتي: إن علم الكونيات Cosmology يتعامل مع بنية عظيمة بحجم الكون، وتواجه هذا العلم أسئلة كبيرة لا يبدو أنه يملك لها جواباً حاسماً، من قبيل: متى وجد هذا الكون؟ وما هي المراحل التي طواها ومرّ بها؟ وهل له نهاية؟ ومتى تكون هذه النهاية؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي لا يقدّم هذا العلم أجوبة شافية لها. وبدل الأجوبة المحددة يقدّم لنا فرضيات ونظريات. فنحن قابعون في زاوية من زوايا هذا الكون ونريد أن نحكم على الكون بأسره من خلالها! والواسطة التي تربط بين زاويتنا وسائر أرجاء الكون الفسيحة هي الضوء. فكل، أو على الأقل أكثر، معلوماتنا عن الكون من القمر إلى الشمس إلى المجرّات الأخرى نستقيها من قنوات الموجات الكهرومغناطيسية التي يمثّل الضوء المرئي عينة منها. وفي كل هذه العمليات العلمية فرضيات لم تستمد من التجربة، فمن خلال اكتشافنا لقانون موضعي ومحلّي، إن صح التعبير، نعمم هذا القانون إلى مجالات أوسع وأكثر رحابة. فمثلاً نأتي بالسديم على شكل غاز ونعرّضه لأشعة نار، فنرى من خلال Spectroscope خطين باللون الأصفر، وإثر ذلك إذا شاهدنا في طيف نجمةٍ ما هذين

الخطين نقول إن هذه النجمة متشكّلة من سديم. ونكون بذلك قد نقلنا القانون الموضعي إلى مدار لا قبل له به ولا يد لعلم الكونيات فيه. وفي هذا العلم فرضية أساسية تقول: «لا تمتاز أي نقطة من الكون عن النقطة الأخرى»، فحيثما وقفت في أرجاء الكون سوف تجد أشياء متشابهة وهذا أصل وقاعدة في علم الكونيات. وبالرغم من أن التجارب تساعد على تقويته ولكن لا يمكن وصفه بأنه أصل تجريبي. وما نحصل عليه بالتجربة هو الضوء الذي يأتينا من النجوم ويميل لونه إلى الحُمرة (بالقياس إلى النور الأرضي) ونفسّره باتّساع الكون وانبساطه. أو هناك الأشعة التي تأتينا من كل جانب ونسمّيها بالأشعة الكونية وقد صارت هذه الأشعة مصدراً لكثير من المعلومات التي نملكها، وكذلك عندنا كمّية الهيليوم Helium الموجود في الكون التي نقايس بينها وبين كمّية الهيدروجين. إذاً، هذه هي المعطيات الثلاث المتوفرة لدينا ونحاول من خلالها الإحاطة بالبنية الأوّلية للكون. لاحظوا كيف أننا على أساس مرتكزات «أرضية» ثلاثة نحاول اكتشاف بداية الكون بل وتحديد مصدره. ومن هنا، يقول أحد فيزيائيي جامعة برنستون المشهورين: بالتأكيد أنا مضطر لكتابة بعض الأفكار وذلك من أجل كسب لقمة العيش، إلا أنه بعيدٌ غاية البُعد عن التواضع أن نتحدث عن $١٠^{-٣٩}$ ثانية بعد الانفجار العظيم.

هذه إشارة موجزة وعامة حول بعض الفرضيات المؤسَّسة لعلم الكونيات، مما لم يبن على التجربة بشكل مباشر. ولمزيد من الوضوح اسمحوا لي بشيء من التفصيل. قد يكون المرء أحياناً في مقام جمع المعطيات التجريبية، هذه المعطيات لا فرق بين أن تؤخذ عينتها من إيران أو أمريكا أو غيرها من نقاط العالم، في هذا المقام تترك الفرضيات المسبقة أثرها أيضاً، ولكن الأثر الأكبر لهذه الفرضيات يكون في مقام ما بعد الجمع؛ أي في مقام التحليل والاستنتاج. ولا أقصد التقليل من دور الاعتقادات والفرضيات ولتوضيح الأمر أذكر بعض الأمثلة:

١ـ من الحقائق التي تم اكتشافها في النصف الثاني من القرن العشرين هي: أنه إذا أخذنا في الاعتبار الثوابت الأساسية للطبيعة، وهي الثوابت التي لا تتغيّر وينظر إليها بشكل متّحد من قبل الجميع وهي وزن الإلكترون، سرعة الضوء، ثابت بلانك وأمثالها، يمكن على ضوئها توضيح وشرح الطاقات والقوى الطبيعية المعروفة. مثلاً، نحن نعرف الآن أربع قوى في الطبيعة ولا شيء يمنع من إضافة قوة أخرى عليها، وذلك أننا في بداية القرن العشرين كنا نعرف قوتين فقط. وعلى أي حال، فقد أثبتت الأبحاث التي أجريت أنه

لو كانت طاقة الثقل النوعي أكبر أو أصغر مما هي عليه الآن لما أخذ العالم شكله الحالي. والحياة تحتاج لتظهر إلى عناصر وأدوات مادية والعنصر الأساسي للحياة هو الكربون، بحسب علم الأحياء والفيزيولوجيا؛ ولذلك يقال: إن حياتنا مبتنية على الكربون. والنجم يحتاج إلى عمر مديد حتى يولّد الكربون تحت ظروف وشرائط خاصة، ومن ثم يتلقاه نجم أو كوكب آخر، وحتى يعمّر النجم ينبغي أن تكون الطاقة الطبيعية فيه خاضعة لظروف وقوانين خاصة. وعلى أساس هذه المعطيات المتوفرة آمن العلماء بضرورة أن يكون عمر الكون ما بين ١٠ إلى ٢٠ بليون سنة، حتى يتسنى للحياة أن تولد من الكربون. وهذا ينتج أنه لو كانت الطاقة الكهرومغناطيسية بالقياس إلى طاقة الذرة أشد أو أضعف مما هي عليه لما أمكن إنتاج الكربون، أو أن النجوم كانت ستولد بسرعة أكبر والعالم سوف يتوقف انبساطه واتساعه وسوف يعود إلى حالته السابقة، ولم يكن ليصل إلى ما وصل إليه حالياً. إذاً، لا بد من تنظيم دقيق يحكم علاقة قوى الطبيعة في ما بينها حتى يتولّد الكربون. وقد أشرت إلى نماذج من هذه القوانين الحاكمة لحركة أجزاء الكون في كتابي: «العلم العلماني» فمن أراد فليرجع إليه.

وعلى أي حال رأى المتألّهون والفيزيائيون المؤمنون أن هذا التنظيم يعد قرينة جديدة تضاف إلى قرائن برهان النظام، ذلك البرهان الذي لم يتأثّر بارتدادات الداروينية، وبالتالي استنتج هؤلاء من هذا التنظيم وغيره ضرورة وجود إله يعود الفضل إليه في إبداع هذا الكون المنظّم. وفي المقابل بنى غير المؤمنين نتائج أخرى على هذه المعطيات العلمية وفسّروها بتفسيرات لا تؤدي إلى القول بوجود إله؛ ولم تكن هذه المواقف التي لا تؤمن بالله أقل ميتافيزيقية من سابقاتها، بل يشترك الطرفان في هذه الخصوصية دون فارق ملحوظ بينهما من هذه الناحية. فهؤلاء الأخيرون (غير المؤمنين) قالوا: بدل أن يكون لدينا عالم واحد فلتكن لدينا عوالم متعددة ولا مانع أن يكون عددها بالبلايين لكل منها نظامه وتنسيقه الخاص منها ما فني ومنها ما كان خاضعاً بالصدفة لنظام متقن أمكن ولادة الكربون وانبثقت عنه الحياة. وبالتالي، لسنا مضطرين لافتراض وجود الله لتفسير نشوء الحياة في الكون الراهن. وإذا اتّضح أن كلا الافتراضين يرجعان إلى فهم ميتافيزيقي يصبح واضحاً ومبرراً اعتراف الفلكي والفيزيائي هويل **Hoyle** الذي يُنقل عنه أنه لم يهز إلحاده شيء بقدر ما هزّه هذا الأصل الإنثربولوجي لتفسير نشوء الحياة. إذاً، معطيات علمية محدودة واحدة فسرها قوم بتفسير ينسجم مع الإيمان بالله وآخرون فسّروها بشكل مختلف.

٢- نظرية التطور الداروينية؛ بغض النظر عن موقفي الخاص بثبات الأنواع أو عدم ثباتها، أقول من باب التسليم والمماشاة: إن الأنواع وُجِدت بالشكل الذي يفترضه داروين وأضاف بعده آخرون أنواع وحلقات أخرى. وهذه الأنواع فُسِّرت بشكلين؛ التطوريون غير المؤمنين ومنهم داوكينز **Dawkins** أستاذ علم الحيوان في جامعة أكسفورد يقول: «**هناك قوى غير واعية ولا تهدف إلى التكامل يمكن أن تفسر بها كل هذه العجائب التي يعقلها ذهننا**». وفي المقابل كثيرون من علماء الفسلجة في الوقت الذي يقبلون فيه نظرية التطوّر إلا أنهم يرون ويعتقدون أن الله هو الذي اختار هذه الطريقة لتطوّر مخلوقاته.

٣- النموذج الثالث، وهو مسألة الحياة التي فسّرها أشخاص مثل: **داوكينز وواطكينز Watkins** بشكل ميكانيكي آلي كامل، وهؤلاء يعتقدون أن الحياة يمكن تفسيرها فيزيائياً وكيميائياً، وآخرون يرون أن الأمر أعقد مما يتصوّر هؤلاء وبخاصة عندما يكون الأمر عن الحياة وما يلازمها من الشعور والإدراك، ولا أذكر أنه كان من بين علماء الكيمياء والفيزياء إلى ما قبل عشرين سنة الأخيرة من يتبنّى هذا الموقف الأخير. ولكننا في هذه السنوات وفي النصف الأخير من القرن العشرين بدأنا نلاحظ وجود عدد يتزايد من العلماء ممن يعترف بصعوبة تفسير الشعور والإدراك بواسطة مقولات العلم الراهن.

وهذا هو أحد العلماء الذين حصلوا على جائزة نوبل يعترف بأن الحياة ظاهرة تقع بالكامل خارج إطار علم الفيزياء الحالي. وكذلك **بنروز**، أحد أساتذة أكسفورد البارزين يعترف بالأمر عينه كذلك، ويؤمن بضرورة الرجوع بدل الفيزياء إلى الرياضيات غير اللوغارتيمية. وهو يثبت بطريقة رياضية عدم إمكان مقايسة الإدراك بالكمبيوتر المتطور. إذاً، ليس تفسير الحياة بشكل علمي تجريبي أمراً ميسوراً دون إدخال عنصر الميتافيزيقيا. وبالتالي، لا يمكن نفي التفسير الآخر الذي يتبنى البُعد الإلهي على أسس علمية محضة.

ويضرب أحد العلماء مثالاً جميلاً ومقرِّباً للفكرة إلى حد كبير، وهو أنه لنفرض أن هناك شخصاً لا يعرف بوجود جهاز للبث في طهران، مثلاً، فيأتي ويجمع بضعة قطع إلى بعضها ليكوّن منها جهاز راديو ويشغّله، فسوف يسمع صوتاً. هذا الشخص سوف يعتقد أن الراديو هو مصدر الصوت، وربما يستدل على ذلك بأنه لو تعطّل هذا الراديو فلن يسمع أي صوت ولو كان جهاز البث في طور العمل؛ لأن جهاز البث يحتاج إلى أجهزة الراديو وقِطَعِه ليُظهِر صوته، وبالتالي إن هذا الراديو يُظهِر إلى العيان شيئاً لم يكن موجوداً ضمن قطعه وأجزائه. وبشيء من المشابهة يأتي العلماء غير المؤمنين بوجود الله ليقولوا لنا: إن

هذا النظام المعقّد المتطوّر يولّد بعض الخواص التي لم تكن موجودة ضمن العناصر الأولى المؤلّفة له، وظاهرة الحياة واحدة من هذه الخواص. ولكن في المقابل نجد من لا يوافق على هذا الاستنتاج؛ تاونز **Charls Towns** الحائز على جائزة نوبل للفيزياء يقول: «**علماء الأحياء يريدون الاستيقاظ من كبوتهم والتواضع والاعتراف بما نعترف به نحن الفيزيائيون**» وتوجد أمثلة عدة غير ما ذكرنا تمكن الإشارة إليها، مثلاً: من الممكن بناء نظرية كوانتوم عليّة أو غير عليّة والوصول إلى النتائج نفسها وترتيب الآثار عينها على الصيغتين.

إذاً، العلم محايد إلى حد ما تجاه التفسير الإلهي وغير الإلهي وليس أقرب إلى أحدهما منه إلى الآخر، على أقل تقدير. وتوجد مسألة مهمة تجدر الإشارة إليها وهي أن علماء اجتماع العلم والمعرفة يرون أن العلم حاصل جدال اجتماعي، وليس أمراً مبنياً على الواقع وحده كما كان يُدَّعى سابقاً، ومن بين هؤلاء من تطرّف إلى حدود كبيرة قد لا نوافق عليها.

ومن بين العلماء الذين طرحوا تفسيراً اجتماعياً للعلم تجدر الإشارة إلى **بول فورمن Paul Forman** الذي قدّم تصوّراً مشوّقاً أثار ضجة كبيرة في حينه حاصله: أن رفض فكرة العليّة من قبل فيزيائيي عصر **فايمر Weimar** الألمان ما بين عامي ١٩١٩ و١٩٣٣، كان ردة فعل اجتماعية على الأوضاع التي كانت سائدة في تلك الفترة، فمنذ نهاية الحرب العالمية الأولى إلى أن طرح هايزنبرغ نظريته في الميكانيكا. نجد عدداً من الفيزيائيين المشهورين تخلّوا عن فكرة العلّية مثل: **إكستر، فايل، نرنست، زومرفلد، رايشنباخ...** ويبرّر فورمن تصوّره هذا بأن الفيزيائيين في العقود الأولى من القرن كانوا يرون أن العلّية هي المعبِّر الوحيد عن قانونية الطبيعة، وكانوا يعتبرون أن التوجه العلمي هو توجّه عقلاني، وبعد هزيمة ألمانيا في الحرب تصوّر الكثيرون أن هذه الثقافة هي المسؤولة عن هذه الوضعية المؤسفة التي وصلت إليها. ومن هنا، برزت تيارات مواجهة لهذا التيار الذي كان سائداً وكان لا بد من ضرب أهم الأسس التي يرتكز عليها، وهو قانون العلّية؛ ولذلك، وبحسب فورمن، فإن الفيزيائي الذي كان يرغب بالحصول على صورة اجتماعية مقبولة كان يجاهر برفضه لقانون العليّة، وسرى هذا التيار إلى الفيزياء؛ ولذلك يعتقد فورمن أن دور التجربة والأبحاث حول الذرة كان لها الدور الأضعف في رفض قانون العلّية بالقياس إلى هذا العامل الاجتماعي.

هذا، وفي مقابل فورمن الذي يعطي العامل الاجتماعي دوراً أساساً في رفض الفيزياء

لقانون العلّية، يرى آخرون مثل كوشينغ J.Cushing: «**أن العوامل النفسية لها الدور الأهم في بناء النظريات والمفاهيم وتفسير هذه النظريات وتحليلها، ويبرز دور العامل الاجتماعي في انتشار النظرية وقبولها على صعيد واسع**». وعلى أي حال فإننا لا نستطيع إلا الموافقة على هذا الكلام ولو بشكل جزئي وفي بعض الحالات والمصاديق.

وبعد هذا التحليل الطويل نسبياً أعود إلى أصل الموضوع وهو أن من يشكك في مشروعية مفهوم «العلم الديني» قد غفل عن البعد الميتافيزيقي للعلم الذي يمثّل داعماً أساساً وركناً ركيناً في بناء النظريات العلمية، فلماذا لا يكون هذا البعد الميتافيزيقي إلهياً يؤمن بغائية العالم وبعده الأخلاقي المستند إلى الله. ولذلك أوافق على وجود شيء من التضخيم في دعوى أن القرن السابع عشر يعتبر فجر بزوغ العلم الجديد الذي يرفض غائية العالم وهادفيّته. ثم إن هناك مسألة أخرى تبرّر وتدعم مقولة العلم الديني وهي مسألة توجيه العلم والاستفادة منه؛ حيث إن كثيراً من فلاسفة الغرب وعلمائه وعوا أن كثيراً من مشاكل الغرب وأزماته الاجتماعية تعود في جذورها إلى فقدان التوجّه الإلهي.

وتُظهِر الإحصاءات بحسب أحد الحائزين على جائزة نوبل في الطب أن ٥٠٪ من العلماء في العقد السادس من القرن العشرين مشغولون بالبحث حول تطوير الأسلحة؛ أي أن ٥٠٪ من الأبحاث توجّه لتطوير السلاح. وقد فتحت الأبحاث حول الجينات الوراثيّة آفاقاً جديدة أقلقت علماء الغرب نظراً إلى آثارها التي يمكن أن تتركها على الجينوم البشري، وفي هذا المجال ينبغي أن نكون الرواد والسابقين في هذا القلق لا أن نكون منفعلين ومتأثّرين فحسب.

ويقال أيضاً: لماذا تقولون علم إسلامي وديني؟ ولا تقولون عالِم إسلامي ومتديّن؟ وجوابنا أن المعطيات العلمية وتفسيراتها قد اختلطت إلى حد كبير يجعل من الصعب على غير المتخصص التفكيك بينهما، وعلى حد تعبير أينشتاين على المرء أن يكون رياضياً وفيلسوفاً وفيزيائياً حتى يتحدّث عن قانون العلّية، فالفيزيائي المحض لا يحق له الحديث عن العلّية. أضف إلى ذلك وجود بعض الأمور التي لا ربط لها بالعالِم وإنما دخلت إلى العلم من الدين نفسه. يقول أينشتاين: «**إن من أكثر الأمور المحيّرة لي هو قابلية الطبيعة لأن تفهم**» وفي مكان آخر يقول: «**قابلية الطبيعة للفهم أمر أخذناه من الدين ... أنا لا أستطيع تصوّر عالم لا يملك هذا الأيمان العميق. ويمكنني تصوير العلاقة بين العلم والدين واختصارها بالقول: العلم من دون الدين أعرج والدين من دون العلم أعمى**». ولقد اعترف بهذه الحقيقة أكثر علماء الغرب حتى غير المتدينين منهم.

ويوجد نموذج أكثر إلفاتاً للانتباه شاهدته في أمريكا منذ زمن غير بعيد وهو أن الطاقات المعروفة في الطبيعة هي أربع يسعى الفيزيائيون إلى التوحيد بينها وإرجاعها إلى طاقة واحدة عظيمة، وهم يقولون بوجود طاقة واحدة عظيمة. ومسألة وحدة الطاقة في الكون تعد واحدة من أهم مشاغل العلم في العصر الحاضر. وقد أعطيت جائزة نوبل لثلاثة من الباحثين في هذا المجال منهم الفيزيائي المسلم **عبد السلام**. واليوم، الجميع يحث الخطى نحو نظرية كل شيء .Theory Of Every Thing يقول **آندريه لينده** الفيزيائي الروسي من الطراز الأول ومؤسس نظرية «**الكون الذاتي الولادة**» التي لا مجال فيها لله، قال في مؤتمر في باركليه: «**علم الكونيات متأثّر إلى درجة كبيرة بالتراث التوحيدي الغربي... ولذلك يمكن اعتبار أن نظرية كل شيء لفهم الكون بشكل نهائي قد تكون ناشئة من الاعتقاد بعدم وجود الله**».

إذاً، العلم الديني له معنى؛ وذلك أن الدين يمكنه أن يكون داعماً قوياً وسنداً مميزاً للعلم. وبعض الناس لامسوا مدى أبعد، وأنا منهم ولست الوحيد في هذا الميدان. فبعض فلاسفة الغرب يعتقدون أن العلم من دون الدين والاعتقاد بالله لا معنى له وغير قابل للفهم. العلم ناجح ولكن لا نفهم سر نجاحه. عقل الإنسان ودماغه هو الذي يخلق الرياضيات، فلماذا نحاول فهم العالم بواسطته ونحن الذين خلقناه؟ فلماذا ندخل رقم ٣/١٤ الذي هو نسبة محيط الدائرة إلى قطرها لماذا ندخله إلى ميدان فهم بنية ذرة الهيدروجين.

وفي الختام أشير إلى كلام **تريغ** أستاذ الفلسفة في جامعة فاريك الذي يقول بصراحة تامة: إنه لا معنى للعلم من دون الإيمان بالله؛ لا بد من أجل العمل العلمي والبحث أن نؤمن أن العالم الذي ندرسه هو عالم منظّم ومحكوم للقوانين. وهذا الأمر لا يمكن استخراجه من العلم؛ وذلك لأننا بحاجة إلى افتراض فلسفي، هو «**ما نجهله محكوم للقوانين عينها التي تحكم ما نعلمه**»، وإلا فلا نستطيع تعميم أي قانون علمي على الوقائع التي لم نرها ولم نُخضعها للتجربة فيما لو كانت غير قابلة للمشاهدة. فنحن إذاً بحاجة إلى أساس يجعلنا نثق ونطمئن بأن مكتشفات العلم ونتائجه يمكن الاستفادة منها واستخدامها في أزمنة وأماكن مختلفة. قابلية الرياضيات للتطبيق والاستخدام في مجال العالم الطبيعي الفيزيائي تكشف عن وجود عقل وراء هذه الظواهر، فليس أمراً عادياً أن تكون هذه العلاقات والرموز التي اخترعها عقلنا مساعدة لنا إلى هذا الحد في التسلّط على الطبيعة وفهمها والاستفادة منها. ويبدو من ذلك أن في باطن هذه الظواهر عقل ونظام يمكن للذهن

الإنساني أن يفهمه. والعلم لا معنى له لو لم يكن الإنسان مالكاً لهذا الاستعداد لفهم بُنية العالم الفيزيائية.

وسؤال: **لماذا يتمتّع الواقع بهذا النظام الذاتي؟** قد يجاب عنه بأن هذه هي الوضعية الصحيحة للأشياء. ولكن هذا الجواب لا وزن له ولا يعطي أي اطمئنان بتعميم نتائج العلوم. والجواب الأكثر دقة، هو: إن الواقع والحقائق الكونيّة على هذا النحو؛ لأن الله أرادها أن تكون كذلك وخلقها كذلك. وهذه هي النقلة من الفلسفة الواقعية إلى الإيمان بالله. وفي الحقيقة لا أجانب الصواب لو ادّعيت أن العلم لا يمكن أن يكتسب مشروعية في أي بيئة أخرى غير هذه البيئة الفكرية، وأن العلم بحاجة إلى مصادرات لا يمكن أن تُبنى أو تستنتج إلا من الإيمان بالله. وتاريخ العلم الجديد يؤيّد هذه الدعوى بوضوح، انتهى كلام تريغ.

وأخيراً، أقول لأولئك الذين يفخرون بأنهم ينظرون إلى العلم بتجرّد ولا يرون العلم إيرانياً أو أمريكيا، إسلامياً أو غير إسلامي فالعلم هو العلم فحسب. أقول لهم: إن هذا الكلام صحيح إذا رتّبنا الحقائق التجريبية وقلنا إن العنصر الفلاني إذا عرّضناه للحرارة يعطينا الضوء الفلاني وذلك المعدن إذا عرّضناه للحرارة يتمدّد بالمقدار الفلاني وهكذا. ولكن الفيزيائيين الكبار لم يقتصروا على هذه الموارد الجزئيّة في كلامهم وتنظيرهم. يقول أينشتاين: «**أريد أن أفهم كيف خلق الله هذا الكون؟ لا شأن لي بهذا العنصر أو ذاك وذلك المعدن أو المعدن الآخر، أريد أن أفهم أفكار الله وسائر الأمور جزئيّات**»، وآخر يقول: «**أريد أن أعرف ماذا يجري في الكون ولا شأن لي بألعاب الرياضيات**».